النظر للوالدين .. وخضوع العيون للعيون .. وهذا من عيون تفسيرات السلف لهذه الاستعارة القرآنية .. فقد روي عن عطاء وعروة من ضمن تفسيرهم لهذه الآية أنهما قالا: (**ولا تحدّ بصرك إليهما، إجلالًا وتعظيما**) خرّجه ابن أبي حاتم وغيره عنهما.

وجاء هذا المعنىٰ عن عائشة مرفوعًا: (**ما بر أباه من حدّ إليه الطرف**) لكنه معلول بصالح بن موسىٰ.

وقد أشار المناوي إشارة بديعة لهذا المستوىٰ من بر الوالدين بنمط نظر العيون للعيون .. إذ يقول المناوي في فيض القدير: (**العقوق كما يكون بالقول والفعل؛ يكون بمجرد اللّحظ المُشعِر بالغضب**)[1] وهو داخل في عموم آية خفض جناح الذل .. لأن النظر شزرًا ليس إلا دخانًا خارجيًا للهيب استعلاء يمور في الباطن ..

أي مسافة تربطنا بقوم يدققون في مجرد الخشونة البصرية للوالدين .. وفينا من يتفنن في مقطوعات التذمر لوالدته لأنه فتح دولابه ولم يجد ملابسه قد غسلت وكويت في التوقيت المطلوب!

وهذه المشاهد المبهرة لأئمة السلف في فهم دقائق الآفاق الدلالية لخفض جناح الذل مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بعمق علم السلف بمنازل العبادات التي يحبّها الله .. وقد كان للإمام التابعي الجليل محمد بن المنكدر شقيقٌ اسمه عمر بن المنكدر .. ومحمد اشتهر بالعلم والرواية فقد روىٰ عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس

---

(١) المناوي، فيض القدير، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ص(٥/ ٥٥١).

وغيرهم، بينما اشتهر عمر بالعبادة والتنسك وغلبت عليه .. وروىٰ الإمام ابن سعد في طبقاته بإسناده قال: (**قال محمد بن المنكدر: بات عمر يصلي، وبت أغْمِزُ رجلي أمي، وما أحب أن ليلتي بليلته**)[1].

هذا هو الفقه الدقيق في مراتب الأعمال .. فقد بقي الإمام ابن المنكدر عامة ليله يدلّك رجلي أمه .. ويخفف إعياءها .. ويطيب خاطرها .. ويؤانس وحدتها .. ويتقرب إلىٰ الله بذلك .. وأخوه عمر صافٌ قدميه بين يدي الله يصلي الليل .. ومع ذلك ما ترك محمد ابن المنكدر رجلي أمه بل صرح أنه يعتقد أن بر الوالدين أجل في ميزان الله من التهجد ..

ولنكن صرحاء مع أنفسنا ونعترف أن هذه المقارنة بين عمل محمد وعمر ابني المنكدر هي مجرد مقارنة تاريخية لا صلة لنا بها .. أنا أخجل أصلًا من أن أطرح هذه المقارنة باعتبارها مرتبطة بواقعنا .. فهؤلاء يتنافسون بين إحياء الليل في التهجد أم إحياء الليل في بر الوالدين .. وكلاهما بالنسبة لنا اليوم خارج النمط المألوف في حياتنا الاجتماعية أصلًا إلا من رحم الله!

وتمر بالمرء قرارات كثيرة في حياته .. في حياته العلمية والعملية .. تحديد تخصص دراسي، قبول عرض وظيفي، شراء مسكن أو مركب، الخ .. وقد يكون أحد الوالدين رافضًا للقرار

---

(١) ابن سعد **الطبقات الكبرىٰ**، تحقيق محمد عطا، دار الكتب العلمية، ص(٥/٣٥٨).

.. فيشعر الابن أن أباه أو أمه ليس لهما اطلاع كافٍ يخولهما فهم الأمر ورفضه .. فيدير مقود شأنه باتجاه ما قرر ولا يفكر في استرضاء والديه أولًا .. وغالب هذه القرارات يُنزع منها البركة .. والعاقل الحصيف هو الذي يسترضي والديه قبل أن يقدم .. فإن لم يرضيا فمن يتق الله يجعل له مخرجا .. ولا أقبح من الاستخفاف باسترضاء الوالدين .. والشعور أنهما لا يدركان ما يدرك الابن ..

وإذا تداول الناس مسألة «أثر التقوىٰ علىٰ العلم» فإنهم يذكرون عبارة الإمام أحمد الشهيرة التي رواها المروذي أن أحمد قال: **(عبد الوهاب الوراق رجل صالح، مثله يوفق لإصابة الحق)** وعبد الوهاب هذا له ابن اسمه الحسن، وهو أحد المقرئين من تلاميذ الدوري، وكان ابنًا بارًا، وحدث له مع أبيه قصة، يحدّث الحسن عن نفسه قائلًا:

(كنت قد اعتزمت إلىٰ الخروج إلىٰ «سر من رأىٰ» في أيام المتوكل، فبلغه -أي أباه- ذلك، فقال لي: يا حسن ما هذا الذي بلغني عنك؟ فقلت: يا أبت، ما أريد بذلك إلا التجارة، فقال لي: إنك إن خرجت لم أكلمك أبدًا، قال: فلم أخرج وأطعتُه، فجلست، فرزقني الله بعد ذلك، فأكثرَ وله الحمد)[1].

فانظر كيف أثمر خفض جناح الذل للوالدين في قرار تجاري البركة في الرزق، فوجد في طاعة والده بركة في ماله، كان

(١) الخطيب، تاريخ بغداد، تحقيق بشار معروف، دار الغرب، ص(١٢/ ٢٨٤).

سيفقدها لو صعّر خدّه وشمخ برأيه الشخصي . .

إظهار الاحترام لرأي الأبوين، وإجلالهما، وإظهار الاستفادة من خبرتهما، والصدور عن توجيههما: هي جنة البر التي من لم يدخلها لن يعرف ماذا تعني هذه الاستعارة القرآنية ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ . .

وكم ترىٰ في الشبّان من يسعىٰ لإظهار جهل والديه وأنهما لا يفهمان الجيل الجديد بل ربما رأيت الشاب يستعرض بمصطلحات شبابية كالمستعلي علىٰ والده أنه لا يفهمها . .

وكم ترىٰ في الفتيات من إذا دخلت المرحلة الثانوية والجامعة صارت تلمز ذوق والدتها . . وتظهر لها أن فلانة من قريباتها أحسن ذوقًا منها . . تظن أن هذه مجرد تقييمات عابرة . . ولا تعرف جرح الكبرياء الذي تغرزه في خاصرة والدتها بلا مبالاة . . أبَعْدَ كل هذه السنوات التي طافت بها والدتك الأسواق لتجعلك شامة في عيون قريناتك . . تأتين اليوم وترمين العبارات اللاذعة عن ذوق والدتك؟!

وبرغم كل هذه الصور البائسة اليوم في عدم التفطن لدقائق قول الله: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ فما زال في الأمة خير ولله والحمد . . وما زالت صور من البر يتناقلها الناس اليوم سُرُجًا يستضاء بها في سماء المادية الكالحة في هذا العصر . .

المجرّات سلالم اليقين

في منتصف القرن العشرين أطبقت علىٰ انجلترا شهرة عالم الفلك والفيزياء الانجليزي «جيمس جينز» (ت ١٩٤٦م)، وقد تنقّل جينز في حياته الأكاديمية بين جامعة كامبردج وجامعة برنستون، وكان بروفيسور (الرياضيات التطبيقية) في جامعة برنستون.

وكان له إسهامات رئيسية في حقلي الفيزياء والفلك، وخصوصًا في تطوير بعض المسائل في مجال الأشعة (radiation)، وتخلّق وتطور النجوم (stellar evolution)، وانتقد نظرية لابلاس في تكون النظام الشمسي واقترح فرضية بديلة، ونحو ذلك.

وسميت باسم جينز عدد من المكتشفات العلمية، منها قانون فيزيائي يسمىٰ (قانون رايلي-جينز) (Jeans law-Rayleigh) حيث ساهم جينز في تطويره وهو قانون يصف الإشعاعات الطيفية في الموجات الكهرومغناطيسية.

ومن المكتشفات التي سميت باسمه (كتلة جينز) (Jeans mass)

وهي نظرية تتعلق بنشأة النجوم، حيث تمثل الحد الأدنىٰ لكتلة السحابة الغازية التي ينشأ عن انكماشها نجم جديد.

وكذلك فوهة قمرية (lunar crater) اكتشفت علىٰ سطح القمر سميت باسمه (فوهة جينز)، وكذلك فوهة مريخية (Martin crater) اكتشفت علىٰ سطح كوكب المريخ سميت باسمه أيضًا.

وأي قارئ لحياة «جيمس جينز» العلمية يلاحظ فورًا أنه كان يقف علىٰ هذه التخوم بين الكوسمولوجيا (الكونيات) والفيزياء؛ بسبب التحام هذين العلمين في العصور الأخيرة، فكثير من الفلكيين فيزيائيون، وكثير من الفيزيائيين فلكيون، ولذلك يقول الفلكي الأمريكي «لويد متز» (ت ٢٠٠٤م) في كتابه قصة الفيزياء:

(الفلك أصبح اليوم أكثر من أي وقت مضىٰ فرعًا من الفيزياء، ويكفينا لتأكيد ذلك أن نلاحظ العلاقات القائمة بين فيزياء الطاقة العالية والكونيات (الكوسمولوجيا)، أو بين تطور النجوم والفيزياء النووية، أو تلك العلاقات بين بنية المجرات وتحريك السوائل، فهي تظهر مدىٰ الرابطة المتينة بين فرعي المعرفة هذين، بل إن قصة الفيزياء تبدأ بعض نواحيها بالفلك اليوناني)(١).

وليس من العسير إدراك وتفسير سبب هذا التداخل والاشتراك بين مباحث الفيزياء والفلك والتي يشير إليها متز وزميله في النص

---

(١) لويد متز وجيفرسون ويفر، قصة الفيزياء، ترجمة طاهر تربدار وزميله، دار طلاس، ص(٢٥).

السابق، ذلك أن الفلك يعنىٰ بالأجرام السماوية، والفيزياء تدرس الحركة وسلوك المادة وطاقتها خلال الزمن والمكان، ومن الطبيعي أن تدرس الفيزياء حركة وسلوكيات هذه الأجرام، ومن هاهنا يجد الفيزيائي نفسه أحيانًا فلكيًا، ويجد الفلكي نفسه أحيانًا فيزيائيًا.

ولم يكتف «جيمس جينز» بكتابة الأطروحات المتخصصة، بل كان ينتمي إلىٰ قطاع من المتخصصين يؤمنون بأهمية تبسيط (العلوم الطبيعية) للقارئ العام، كما كتب الفيزيائي البريطاني (ستيفن هوكنغ) مثلًا كتابه المشهور (**موجز تاريخ الزمن: من الانفجار الكبير إلىٰ الثقوب السوداء**) والذي بسّط فيه أسس الكوسمولوجيا (الكونيات)، وبيعت منه أكثر من عشرة ملايين نسخة، وتُرجم للغات العالمية.

ومثل هذا النمط من المؤلفات التي تخاطب القارئ العام تخلق للمؤلف شهرة في الإعلام باعتباره شارح ومفسر **للثورات العلمية** في زمنه، وقد لعب «جيمس جينز» هذا الدور فعلًا، وخصوصًا في حقل الكوسمولوجيا (الكونيات) وهو حقل شديد الجاذبية والإبهار للقارئ العام.

وينتمي «جيمس جينز» للتيار الذي يعطي الفلسفة (**موقعًا ذيليًا**) بالنسبة للعلوم الطبيعية، وأن الفلسفة ذات هوية تبعية باعتبار أن العلوم الطبيعية تكتشف وتبتكر وتخترع، والفلسفة تعلّق لاحقًا فقط علىٰ ما تم اكتشافه، فالفلسفة لدىٰ هذا التيار، مجرد «تفسيرات» تلاحق تطورات العلوم، كما يقول جينز مثلًا:

(الفلسفة في أية فترة زمنية، مرتبطة دومًا، وبشكل كبير؛ مع العلم في نفس هذه الفترة، لذلك فإن أي تغير رئيسي في العلم ينتج ردود فعل في الفلسفة)[1].

وهذا الرأي التبخيسي للفلسفة في مقابل إجلال العلوم الطبيعية، والذي يتبناه الفيزيائي/الفلكي «جيمس جينز»، ليس رأيًا مبتكرًا له، بل هو اتجاه معروف في الفكر الغربي، ويشيع خصوصًا بين الباحثين في الحقول التجريبية، ويمكن أن نجد اعترافًا بهذا الدور التبعي/التفسيري للفلسفة في التشبيه الذي صاغه رأس الفلسفة الألمانية «هيغل» (ت ١٨٣١م)، حين وصف الفلسفة في نهاية مدخل كتابه عن فلسفة الحق بقوله: (بومة مينرفا لا تنشر أجنحتها وتطير إلا حين يخيم المساء)[2].

ومينرفا هي آلهة الحكمة والفلسفة في الأساطير الرومانية، وكان لها بومة، لأن البومة في تصوراتهم رمز للحكمة باعتبار سلوكها الصامت المراقب طوال النهار، واختيارها المواقع غير المأهولة.

ومقصود هيغل بهذا التشبيه أن الفلسفة لا تبدأ في العمل إلا بعد انتهاء الأحداث والأعمال في النهار، فتأتي لاحقًا لتفسر فقط، ومقتضىٰ هذا التشبيه أن الفلسفة ذات (مرتبة تفسيرية) فقط، لا (صانعة للأحداث).

---

(١) J. Jeans ،*Physics and philosophy*، Cambridge, 1943, p. 2

(٢) Hegel ،*Philosophy of right*، p.xxi

وهناك شواهد أخرىٰ كثيرة في الفكر الغربي لمن يميل لهذا الاتجاه التقزيمي لمكانة الفلسفة في مقابل **تعظيم** العلوم الطبيعية ونتائجها في الطب والتكنولوجيا ونحوها، وليس هاهنا محل بسط هذه الشواهد.

ولذلك تجد أمريكا -مثلًا- المتفوقة في العلوم والتقنية يقل فيها الفلاسفة، بينما أوروبا التي تراجعت مقابل التفوق الأمريكي يكثر فيها الفلاسفة، حتىٰ أن عالم النفس الأمريكي جرانفيل ستانلي (ت ١٩٢٤م) في مقالته «الفلسفة في الولايات المتحدة» التي نشرها في فصلية (مايند) حين كان يطرح تشخيصًا مبكرًا للواقع الفلسفي في أمريكا يقول: (الفلاسفة في أمريكا أندر من الثعابين في النرويج)[1] لكنه يرجع ذلك لحداثة عمر الولايات المتحدة.

وقد استعرض ستانلي تفسيرًا لهذه الظاهرة -أعني محدودية الفلاسفة في أمريكا- مرتبطًا بعمر البلد، ومزاج الأعمال والاستثمار العملي.

وفي تقديري الشخصي أن من أهم كتب جيمس جينز كتابه «الفيزياء والفلسفة» (Physics and philosophy) وهو دراسة مقارنة بين طريقة عمل الفيزيائيين ومنتجاتهم العلمية، وطريقة عمل الفلاسفة ومنتجاتهم التي قدموها، ويحاول جينز في كتابه هذا أن يثبت وجهة نظره تفصيلًا حول تواضع ثمرات الفلسفة مقارنةً بالنتائج

(١) G. Stanley Hall ،*Philosophy in the United States*، Mind، p. 95

التي قدمتها لنا الفيزياء، وفي هذا الكتاب مواضع صادمة للقارئ، مثل الموضع الذي شرح فيه نظرية كانط وحلل جدواها وأنه يرىٰ أنها لم تضف شيئًا ذا بال، ثم حاول أن ينقل الفلسفة إلىٰ تفكير جديد علىٰ ضوء نتائج الفيزياء كمفهوم السببية وحرية الإرادة وغيرها.

وإذا وضع الباحث كتاب جينز هذا في سياقه التاريخي فسيستوعب بالضبط خلفيات هذا الطرح، فكتاب جينز هذا (الفيزياء والفلسفة) وُلِد في أيام (ثورة العلوم الطبيعية) وتطور الحياة الاجتماعية بناء علىٰ المكتشفات والابتكارات التي تضخها في حياة الناس، وكانت هذه المرحلة أصعب اللحظات التي بدأت تعيش فيها الفلسفة (**أزمة الجدوىٰ**)، فصار يتساءل كثير من الباحثين في الحقول التجريبية خصوصًا عن (**جدوىٰ الفلسفة**) ويرون أنها لم تقدم شيئًا؟

ومن أمتع المناقشات التي حاولت دراسة هذه الظاهرة والرد علىٰ المخالفين فيها، ورقة الفيلسوف الانجليزي برنارد ويليامز (ت ٢٠٠٣م) وكانت بعنوان «حول بغض وازدراء الفلسفة»، وقد نشرت في مجلة (لندن ريفيو) وقد استفتحها ويليامز بقوله (**حيثما وجد موضوع فلسفي وجد من يكرهه ويزدريه**) والرصد المثير الذي عرضه ويليامز هو قوله في مقالته (**هذه الأيام، معظم الذين يتخذون هذا الموقف ضد الفلسفة ليسوا متدينين، بل علماء!**)[(١)].

(١) B. Williams ،*On hating and Despising philosophy*، LRB، 1996, p. 16

وبطبيعة الحال لم يكن ويليامز مسرورًا بهذه الظاهرة، بل خصص هذه الورقة للرد علىٰ هذه الاتجاه المستخفّ بالفلسفة بعد ثورة العلوم الطبيعية.

هذه الظاهرة شديدة الشيوع في الفكر الغربي العلمي، أعني ازدراء الفلسفة وتعظيم العلوم الطبيعية، تقودنا إلىٰ التساؤل:

لماذا إذن شاع بين الشباب المثقف العربي، المعجب بالغرب؛ القراءة في «التراث» الفلسفي الغربي، كفلاسفة القرون ١٧-١٨-١٩، والضعف في التكوين العلمي الطبيعي؟

الحقيقة أن هذه الظاهرة تستحق الرصد والتحليل، وسأحاول أن أقدم تفسيرًا لها، ففي تقديري أن هؤلاء الشباب العربي قرؤوا للمفكرين العرب الذين درسوا الفلسفة في الغرب، ولم يقرؤوا لمختصي العلوم الطبيعية من العرب، فنقلهم المفكرون العرب أصحاب التكوين الفلسفي إلىٰ التراث الفلسفي الغربي، وصوروا لهم أن التقدم المادي الغربي كله نتيجة للفلسفة الغربية، وهذا التصوير نتيجة طبيعية لكون هؤلاء المفكرين العرب يسوقون بضاعتهم.

ولذلك وجدنا شبابًا عربيًا يتخرج من كليات الطب والهندسة والعلوم ثم يصرف وقت فراغه في قراءة التراث الفلسفي الغربي (القرون ١٧-١٨-١٩)، بدلًا من أن ينشر الثقافة العلمية الحديثة والمعاصرة في بلده! وهذه ظاهرة مدهشة فعلًا، ومحزنة في نفس الوقت، فالمؤهلون بالعلوم التي يحتاجها مجتمعنا من الجادّين في

القراءة يترك بعضهم ترقية مجتمعنا بتخصصه، ويذهب يحفر في غبار التاريخ الغربي العتيق!

ويمكن للقارئ أن يتابع بعض المقالات الفلسفية في صحفنا المحلية، أو الندوات الفلسفية في محيطنا الخاص؛ وسيلاحظ أن الرموز الفلسفية الغربية المتداولة غالبها الساحق ينتمي إلىٰ «الماضي» الفلسفي الغربي، وليس إلىٰ «الراهن» والحديث والمعاصر، وآخر ما توصل إليه العلم!

سيلاحظ الراصد للحالة الفلسفية العربية والمحلية خصوصًا - مثلًا- أن الرموز الفكرية الفلسفية المتداولة بينهم هم رموز القرن السادس عشر (مارتين لوثر)، أو رموز القرن السابع عشر (فرانسيس بيكون، ديكارت، توماس هوبز)، أو رموز القرن الثامن عشر (جون لوك، هيوم، روسو، كانط) أو رموز القرن التاسع عشر (بنتام، هيغل، شوبنهاور، كيركيجارد، سبنسر، نيتشة) ونحو هؤلاء، ويعرف القارئ أن التطور العلمي المعاصر تجاوز بمسافات فلكية أفكار وتصورات هؤلاء الفلاسفة الذين عاشوا عصور التخلف التكنولوجي.

ولذلك يمكن القول أن الشباب الذين طلّقوا القراءة في العلوم الشرعية، وانصرفوا للقراءة في التراث الفلسفي الغربي؛ أنهم انتقلوا من (تراث) إلىٰ (تراث آخر) فقط، وهم يتخيلون أنهم انتقلوا من الماضي للحداثة!

وإذا كان بعض هؤلاء الشباب يسمي الكتب الشرعية كتبًا

صفراء، فالذي فعله هو أنه انتقل فقط من كتب صفراء شرقية، إلىٰ كتب صفراء غربية! فما زال في عالم الصُّفرة بحسب معاييره!

لكن ما السبب الذي دعا الشباب المثقف العربي للإقبال علىٰ كتب الفلسفة العربية والعزوف عن الكتب العلمية العربية؟ ربما يعود السبب إلىٰ مبادرة المفكرين الفلسفيين العرب، وتكاسل المختصين العرب في العلوم الطبيعية عن تبسيط العلوم للقارئ العام، وربما لأن العلوم تحتاج إلىٰ معامل ومختبرات وأجهزة وتمويل للبحث العلمي، بخلاف الفلسفة التي هي (نشاط تأملي ذهني محض) ينهي المؤلف فيه كتابه في غرفته الخاصة، وبسبب تفريط النظم السياسية العربية في تمويل البحث العلمي اتجهت العقول إلىٰ الاشتغال بالفلسفة كتعويض.

علىٰ أية حال .. ما سبق كله كان استطرادًا غير مقصودٍ بالأصالة، وإنما جرّنا إليه توجّه «جيمس جينز» إلىٰ تبخيس الفلسفة وتعظيم العلم في كتابه (الفيزياء والفلسفة)، فاضطرنا الحديث إلىٰ عرض هذا الاتجاه في الفكر الغربي.

وإنما كان المراد الأساسي من السطور السابقة هو التعريف الموجز فقط بالفيزيائي/الفلكي «جيمس جينز»؛ تمهيدًا لعرض حوار هام جرىٰ بينه وبين طرف آخر، وهو عالم الرياضيات الهندي (عناية الله المشرقي).

هذا الطرف الآخر في الحوار وهو عناية الله المشرقي (ت١٩٦٣م) قد عُرِف بولعه الغريب بالرياضيات، وأنهىٰ الماجستير

في الرياضيات وعمره (١٩) سنة وحطم الأرقام القياسية السابقة له، وفي نفس العام (١٩٠٧م) وقد أتم التاسعة عشرة من عمره؛ سافر إلىٰ بريطانيا لمواصلة دراساته في الرياضيات في جامعة كامبردج، وأنهىٰ خلال وجوده في كامبردج دراسة عدة تخصصات موازية في اللغات الشرقية والعلوم الطبيعية!، ومكث في كامبردج خمس سنوات إلىٰ العام ١٩١٢م، ثم عاد بعدها إلىٰ الهند.

ولما بلغ عناية الله المشرقي بحر الثلاثين خطرت له فكرة تفسير القرآن علىٰ ضوء مكتشفات العلوم الطبيعية، ونفذ الفكرة فعلًا، وأنهىٰ المجلد الأول منه وعمره (٣٦ سنة) في عام ١٩٢٤م، وسماه (التذكرة)، فلفت الأنظار بعمله هذا، وتم ترشيحه لجائزة نوبل، إلا أن لجنة الجائزة اشترطت ترجمة العمل لأحد اللغات الأوربية، فرفض عناية الله الجائزة، وقال: (لا أريد جائزة لا تعترف بلغتي الأوردية!) برغم أنه درس في كامبردج أصلًا عدة تخصصات، وشأن الترجمة لا يكلفه شيئًا، لكنها أنفة العالم الهندي.

وانخرط عناية الله في المعترك السياسي، وتقلد عدة مناصب حكومية، ثم استقال وأسس حزبًا سياسيًا اسمه (حركة الخاكسار)، وأنشأ صحيفة أسبوعية باسم (الإصلاح)، وسجن عدة مرات.

وللأسف، لم تكن الصورة مشرقة إلىٰ هذا الحد، فقد كان لدىٰ عناية الله بعض التصورات الخاطئة حول السنة النبوية، ومفهوم اختلاف النبوات في التشريع، ونظرية التفسير الإسلامية،

وغيرها، وللتوسع حول شخصية عناية الله المشرقي ودوره يمكن مراجعة الكتب المتخصصة في ترجمته[١].

لكن .. دعنا نصل الآن إلىٰ جوهر المراد من هذا التعريف بالشخصيتين، وهما: العالم الفيزيائي/الفلكي الانجليزي (جيمس جينز)، وعالم الرياضيات الهندي (عناية الله المشرقي).

ففي نفس الفترة التي قدم فيها عناية الله المشرقي إلىٰ كامبردج لمواصلة دراساته في الرياضيات، التقىٰ بجيمس جينز حيث كان جينز يدرّس في الجامعة، وتعرف عليه، وقد روىٰ عناية الله المشرقي قصة مدهشة وقعت له مع جينز، وقد نشرت هذه القصة في مجلة (نقوش) الباكستانية، في عددها الخاص المكرس لسيرة عناية الله المشرقي، ثم نقلها عن المجلة المذكورة المفكر الهندي (وحيد الدين خان) في كتابه الذي ترجم للعربية بعنوان (الاسلام يتحدىٰ: مدخل علمي إلىٰ الإيمان)، وأصل الكتاب في النسخة الانجليزية بعنوان (الله يتجلىٰ: أدلة الله في الطبيعة والعلم) وذكر في مقدمته أن هذا الاسم (الله يتجلىٰ) مأخوذ من آية في الانجيل، ولكن في الترجمة العربية جعل العنوان (الإسلام يتحدىٰ).

حسنًا .. دعنا الآن ننقل هذا الحوار الطويل، يقول وحيد الدين خان في كتابه «الاسلام يتحدىٰ» ما يلي:

---

(١) alik M., *Allama Inayatullah Mashraqi: A Political Biography*, Oxford University Press, 2000.

(وسوف أختم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشرقي وهو يقول:

كان ذلك يوم أحدٍ، من أيام سنة ١٩٠٩م، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرىٰ الفلكي المشهور السير جيمس جينز-الأستاذ بجامعة كمبردج-ذاهبًا إلي الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوتُ منه، وسلمت عليه، فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرىٰ، فسألني: ماذا تريد مني؟

فقلت له: أمرين، يا سيدي! الأول هو: أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر!.

فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته علىٰ الفور.

فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلا ذائع الصيت في العالم مثلك؛ أن يتوجه إلي الكنيسة؟

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظةً، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي.

وعندما وصلت إلىٰ داره في المساء؛ خرجت ليدي جيمس، في تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني، وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور منهمكًا في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟.

ودون أن ينتظر ردّي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها، ومداراتها، وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتي إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله.

وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائمًا، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول: يا عناية الله! عندما ألقي نظرة علي روائع خلق الله، يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: «إنك لعظيم!» أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلي الكنيسة؟

ويضيف العلامة عناية الله قائلًا: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانًا في عقلي، وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جدًا بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم.

فهز رأسه قائلًا: بكل سرور.

فقرأت عليه الآية التالية: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

فصرخ السير جيمس قائلًا: ماذا قلت؟ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنَ

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؟ مدهش! وغريب وعجيب جدًا!!، إن الأمر الذي كشفتُ عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمدًا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك؛ فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحىً من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلًا: لقد كان محمد أميًا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن «الله» هو الذي أخبره بهذا السر .. مدهش ..! وغريب وعجيب جدًا)[1].

هذا الحوار المثير الذي وقع بين الفيزيائي/الفلكي جيمس جينز، وعالم الرياضيات الهندي عناية الله المشرقي، له دلالات وفيه مواضع لا ينقضي منها العجب.

فهذا الانفعال العميق الذي وقع من «جينز» وهو يتعمق في دراسة المعلومات الفلكية ويستعرضها إلىٰ درجة الارتجاف وانهمار الدموع مشهدٌ يثير كوامن الإيمان في النفوس البشرية.

وبسبب أن عناية الله كان صغير السن حين التقىٰ بجينز، وانبهر بإيمانه بالله، فقد كان لذلك أثر عجيب في تعميق اليقين بالله في نفس هذا الفتىٰ، حتىٰ اعتُبِر جينز ملهمًا له.

وهذا الكون العجيب بمجراته ونجومه وكواكبه وأقماره ومداراته ونظامه دفع البروفيسور جينز إلىٰ البحث عن أقرب دين

---

(١) وحيد الدين خان، **الإسلام يتحدىٰ: مدخل علمي إلىٰ الإيمان**، ترجمة ظفر الإسلام خان، مكتبة الرسالة، ص(٢٠٣)

يعرفه فتمسك النصرانية، فكيف لو تعرف على كتاب الله المحفوظ ورأى ما فيه من عجائب الإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز البلاغي، والإعجاز الروحي.

ثم انظر مع كل هذا الانبهار بعجائب الكون ونظامه، ازداد جينز دهشة حين سمع قول الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، وشهد أن القرآن حق! فما أعجب ما يصنعه القرآن في النفوس البشرية!

ومن العجائب في هذا الحوار أن تنظر كيف يجد البروفيسور «جينز» في فطرته البشرية ما يؤيده وهو يناجي الله بالتعظيم ويقول لله «إنك لعظيم»! فكيف لو عرف هدي رسول الله ﷺ في مناجاة الله بأشرف الأذكار والمقامات وقد تفطرت قدماه ﷺ؟!

ثم انظر كيف يحكي البروفيسور «جينز» عن السعادة والسكينة التي تغمر نفسه حين يناجي الله بالتعظيم، فكيف لو ذاق سكينة القرآن وغمرته حلاوة التهجد ولذة الخشوع والانطراح بين يدي الله؟!

كل هذه المعاني في تعظيم الله تكشفت للبروفيسور «جينز» وهو يتأمل فقط ملكوت السموات والأرض، حتى بلغ أن شهد للقرآن أنه حق، وأن نبوة محمد ﷺ حق، ألا صدق الله سبحانه إذ قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

هذه المشاعر التي عصفت بالبروفيسور جينز وهو يتدبر عظمة

ملكوت السموات والأرض، وجمال الفلك، عرضت لكثير من الناس غيره، وسأذكر بعض الشواهد:

فهذا إيمانويل كانط (ت١٨٠٤م) رمز الفلسفة الألمانية، وفي عمله الثاني في ثلاثيته النقدية المشهورة، استفتح خاتمة الكتاب بهذه العبارة ذات الدلالات المثيرة، حيث يقول كانط في كتابه المشار إليه:

(شيئان اثنان يملآن العقل بإعجاب ومهابة متجددين ومتزايدين، كلما كررنا النظر فيهما: الأفلاك المرصعة بالنجوم فوقنا، والقانون الأخلاقي في داخلنا)[١].

حين تتأمل في مشاعر كانط هذه التي يرويها عن نفسه، وتستحضر منزلة كانط المركزية في الفلسفة بعامة، والفلسفة الألمانية بخاصة؛ تصل إلىٰ نتيجة خلابة، وهي انفعال أشد الناس إيغالًا في العلوم العقلية بهذه الآيات الكونية الفلكية في السماء..

حسنًا.. دعنا نتجاوز هذه الطبقة من أهل العلوم الطبيعية والفلسفية، ولنتأمل في طبقة أرفع منهم وأشرف وأنقىٰ وأزكىٰ وأعلم، وهم سادات العلم والإيمان، وإذا دلفنا إلىٰ هذه الطبقة فلن أستطيع أن أتجاوز قصةً شاهدها الحافظ أبو حفص البزار (ت ٧٤٩هـ) بنفسه، ثم سجلها في كتابه «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية»، الذي تقدمت الإشارة إليه في فصل سابق.

---

(١) Kant I, *The Critique of Practical Reason*, Bibliotech Press, p. 123

وبالمناسبة فكتاب البزار هذا في تقديري هو أعذب الكتب التي ترجمت لأبي العباس، صحيح أن في ترجمة ابن عبد الهادي وابن كثير توسُّعٌ في نواحٍ ومعلومات معينة، لكن البزار نقل أمورًا من دقائق تصرفات ابن تيمية، في ليله ونهاره، لا تجدها عند غيره، وربما يكون السبب في ذلك أن البزار اقترب من ابن تيمية شغفًا بنقل أحواله، وكان ابن تيمية يدنيه منه، كما يقول البزار **(وكنت مدة إقامتي بدمشق ملازمُه جلّ النهار، وكثيرًا من الليل، وكان يدنيني منه حتىٰ يجلسني الىٰ جانبه)**[1]. وإني أغبط كل قارئ لم يقرأ بعد الأعلام العلية، لأن متعة تاريخية تنتظره . .

وهذه القصة التي نقلها البزار عن ابن تيمية تتعلق بموضوعنا عن الفلك، حيث يروي الحافظ البزار برنامج ابن تيمية بعد صلاة الفجر مباشرة، فيقول:

(ثم يشرع في الذكر، وكان قد عُرِفت عادته لا يُكلِّمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر يُسمِع نفسه، وربما يسمع ذكره من إلىٰ جانبه، مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء، هكذا دأبه حتىٰ ترتفع الشمس ويزول وقت النهي عن الصلاة)[2].

---

(١) البزار، **الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ص(٣٨).

(٢) المصدر السابق، ذات الصفحة.

فتأمل كيف كان أبو العباس ابن تيمية يكثر من النظر في ملكوت السموات والأرض بعد صلاة الفجر وهو يذكر الله، يقلب بصره في السماء، لما يتضافر في ذلك من اجتماع أسباب الاستغراق في استحضار العظمة الإلهية، وإنما ورد النهي عن رفع البصر إلىٰ السماء في حال الصلاة كما سبقت الإشارة إليه في فصل سابق، لأنها حال خاصة من الخشوع والإطراق والأدب، وأما في سوىٰ ذلك فلم ينه عنه، بل هو من هدي رسول الله ﷺ، كما كان يقلب وجهه في السماء وهو يلتمس تحويل القبلة ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، وذكر الصحابة كثرة رفع النبي صلىٰ الله عليه وجهه إلىٰ السماء، كما في صحيح مسلم **(فرفع -النبي ﷺ- رأسه إلىٰ السماء، وكان كثيرا مما يرفع رأسه إلىٰ السماء)**(١)، وفي السنن كان رسول الله ﷺ **(إذا جلس يتحدث يكثر أن يرفع طرفه إلىٰ السماء)**(٢).

ومن أعظم النماذج في التعامل مع الفلك كمعراج لليقين، والتي تفوق ماذكرناه عن غير الرسل، موقف خليل الله إبراهيم عليه السلام وما جرىٰ له من أحوال مع الأجرام الفلكية . . وقد نص الله في كتابه أنه أرىٰ إبراهيم «ملكوت السموات والأرض» لتحقيق نتيجة

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٣١).

(٢) سنن أبي داود (٤٨٣٧)، وأعله بعضهم بعنعنة ابن إسحاق، وهذا غير دقيق، وهذه طريقة المتأخرين في التدليس، فشيخه يعقوب بن عتبة سمع منه، بل نص ابن المديني علىٰ عدم تدليس ابن إسحاق أصلًا، فهو محمول علىٰ الاتصال، والله أعلم.

واضحة وهي قوله «وليكون من الموقنين» . .

فأي برهان أعظم من هذا البرهان يبين أن الفلك معراج لليقين . . وأن الأجرام السماوية وأحوالها سلالم يصعد بها القلب إلىٰ مدارات الجزم وخلع الارتيابات . . ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

النظر في ملكوت السموات والأرض . . درب ينتهي بصاحبه إلىٰ جنة اليقين . .

وقد دعانا الله إلىٰ هذا النظر في ملكوت السموات والأرض فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

علىٰ أية حال . . من تأمل في قصة الفيزيائي/ الفلكي جيمس جينز وشدة انفعاله بعظمة صنع الله وبدائع نظامه في الفلك حتىٰ انهمرت دموعه، وتأمل عبارة كانط حين تحدث عن تزايد الإعجاب والمهابة كلما كرر المرء النظر في السماء المرصعة بالنجوم فوقنا، وتأمل كيف كان الإمام ابن تيمية يقلب بصره في السماء بعد صلاة الفجر حتىٰ تطلع الشمس . . ثم ضم هذه المشاهد كلها إلىٰ قول الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ أدرك شيئًا من عجائب أسرار القرآن في غرس اليقين في النفوس البشرية . .!

وكلما أعاد المرء التدبر والتمعن في العبارة الأخيرة «وليكون من الموقنين» انفتحت له أبواب عظيمة إلىٰ مقام الإحسان، وهو

أرفع مقامات الدين، فوق الإسلام والإيمان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، يعني من شدة اليقين ..

فإذا رأيت النجوم تتدلىٰ بحبال ضيائها إليك فانتهز الفرصة وتسلق بها إلىٰ قمم اليقين ..